طرابلس الغرب من الاحتلال الإسباني إلى دخول العثمانيين 1510 – 1551 م

د. مصطفى عبيد
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

الملخـــــص:

يعالج هذا المقال التحرشات الإسبانية على طرابلس الغرب 1510 – 1551 م كجزء من ساحل شمال إفريقيا ، وكمفصل هام يجمع حوضي المتوسط الشرقي والغربي، بغية احتلاله لأنه بمثابة النقطة المفصلية للسيطرة على البحر المتوسط، وبالتالي –بالنسبة للإسبان– مراقبة الملاحة في المتوسط ومراقبة نشاط الدولة العثمانية الذي تزايد في تلك الفترة (مطلع القرن السادس عشر الميلادي). وقد أردنا من خلال ذلك كله معالجة إشكالية التواجد الإسباني في طرابلس الغرب من أجل تحقيق الأهداف المذكورة.

مقدمـــــة:

طرابلس الغرب هي أكبر مدينة ليبية، حيث كانت ليبيا خلال العصر الحديث تتكون من ثلاثة مقاطعات كبيرة هي: طرابلس في الغرب، وبرقة في الشرق، وفزان في الجنوب الغربي وقد كانت طرابلس أكبر وأهم تلك المقاطعات، وبالتالي فعلاقات طرابلس مع العالم الخارجي كانت بمثابة العلاقات الليبية معه وهي العلاقات التي تعود إلى التاريخ القديم، حيث تدلنا المعطيات التاريخية على تعدد جبهات هذه العلاقات، التي شملت البحر المتوسط بضفتيه سواء بشمال إفريقيا التي كانت تعرف تاريخيا بالحضارة الليبية (الأمازيغية)، أو بمصر حيث قامت أسر فرعونية من أصول ليبية. أو من خلال علاقات الليبيين مع الرومان والوندال والبيزنطيين والنورمانديين والإسبان والمالطيين وفرسان القديس يوحنا إلى غاية العثمانيين والفرنسيين والإنجليز والأمريكان وكذلك الإيطاليين الذين انتهت ليبيا تحت احتلالهم سنة 1911.

وقد حاولنا خلال هذه الدراسة تناول الصراع الإسباني العثماني على طرابلس الغرب، ابتداء من أول وقوع لها تحت السيطرة الإسبانية سنة 1510 وإلى غاية سنة 1551 تاريخ دخولها تحت الحكم العثماني. ولذا فالإشكالية التي نود معالجتها هنا تتمحور حول التحرشات الإسبانية على طرابلس الغرب سواء بصفة مباشرة أو بوضعها تحت سيطرة فرسان القديس يوحنا التابعين آنذاك للإمبراطورية الإسبانية. وكيف حاولت الدولة العثمانية استدراك الوضع بطرد الإسبان وفرسان القديس يوحنا عن طرابلس وسواحل شمال إفريقيا والابقاء على ليبيا في الامتداد الطبيعي للدولة الإسلامية وتحت رايتها؟.

1- النفوذ الإسباني في حوضي المتوسط:

بعد سقوط الأندلس سنة 1492م، صارت لإسبانيا الكلمة الأولى في حوضي المتوسط من خلال سيطرة مملكة فرديناند داراغونا الكاثوليكي على الوضع بالمنطقة، وحشدها الدعم الأوربي والبابوي في القضاء على آخر معاقل المسلمين في الأندلس ومتابعة حركة الفارين منهم إلى شمال إفريقيا تحت اسم "مطاردة الموريسكيين" وأصبح مضيق جبل طارق على حدود سبتة المغربية بمثابة الحدود الجنوبية لإسبانيا.[1]

إن حركة السيطرة الإسبانية هذه، لم تكن مقتصرة على ليبيا فحسب، بل كانت ممتدة على حوضي المتوسط من المغرب الأقصى غربا وإلى سواحل طبرق شرقا أي إلى حدود ليبيا مع مصر فقد راح ضحية الضربات الإسبانية مسلمو الأندلس وسواحل المغرب الأقصى، وتونس، والجزائر، لاسيما بين 1492 و 1541 كما كان الإسبان يرون أنّ السيطرة على جربة هي مفتاح السيطرة على حوضي البحر المتوسط، وأنّ لا نجاح في التمكّن من جربة دون السيطرة على طرابلس الغرب التي تعتبر -بالنسبة إليهم- القاعدة الخلفية لجربة للجوء إليها في حالات المعارك الضارية مع الجيوش العثمانية.[2]

ومن المفيد هنا أنّ نذكّر بأن عوامل كثيرة ساعدت الإسبان على السيطرة على حوضي البحر المتوسط خلال الثلث الأول من القرن السادس عشر، قبل أن تصير القوة العثمانية ندا لها، ثم أخت وجودها في مطلع الربع الأخير من القرن نفسه، حين تمكن العثمانيون نهائيا من ساحل شمال إفريقيا، باستثناء بعض الموانئ والمدن التي كان الصراع عليها كبيرا، وآخرها مدينة وهران، التي كان الصراع حولها على أشده، حتى حررها العثمانيون من القبضة الإسبانية نهائيا سنة 1792.

---

[1]- **Fernand Braudel, Les Espagnols et la Berbérie de 1492 – 1577, Belles-Lettres, 2ème éd. 2013. P 15.**

[2]- عمر محمد الباروني، الأسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس، مطبعة ماجي، طرابلس، ليبيا، 1952. ص 27.

وقد كان أهم تلك العوامل على الإطلاق هو القوة الإسبانية لا سيما بعد وحدة فرديناند الكاثوليكي مع الملكة إيزابيلا [1]، وكذلك الدور الذي لعبه الكاردينال خمينيس الذي كان يكنّ عداوة صارخة للمسلمين ودائم الإلحاح على فرديناند بضرورة مطاردة المسلمين واحتلال سواحل شمال إفريقيا[2] هذا إضافة إلى القوة التي كان الإسبان قد استفادوا منها في البحرية الإسلامية بالأندلس حين خبروا طرق المسلمين وأساليبهم الحربية في البحر، والرغبة في المزيد من التوسع لا سيما بعد الاكتشافات البرتغالية والإسبانية في الأمريكيتين وفي إفريقيا. كما كانت الرغبة في الوصول إلى الثروات المتمثلة في المعادن النفيسة التي كانت تستحوذ عليها تجارة الولايات الإيطالية مع دول شمال إفريقيا عن طريق القوافل القادمة إليها من إفريقيا جنوب الصحراء، وعن طريق موانئ البحر الأحمر، كلها كانت سببا في سيلان لعاب الإسبان في الحصول على تلك الغنائم، فأعلنت إسبانيا تبعية الولايات الإيطالية لها بتزكية من البابا، كما أعلنت تبعية فرسان القديس يوحنا لإمبراطورية شارلكان أيضا؛ تحت مظاهر الرغبة في نشر المسيحية التي كانت تؤيدها الكنيسة الكاثوليكية في إيطاليا. زاد من دعم ذلك كله ابرام شارلكان معاهدة كمبري سنة 1529 التي أنهى بموجبها الحرب مع فرنسا، والتي منحت له التفوق والاحترام في أوربا[3] إضافة إلى

---

[1]- توفي فرديناند الكاثوليكي يوم 22 جانفي 1516، وقد اعتبرت وفاته نهاية مرحلة وبداية أخرى في تاريخ العلاقات بالمتوسط عموما والعلاقات المسيحية الإسلامية خصوصا. لمزيد من الاطلاع يرجى العودة إلى: Diego de Haedo, Histoire des rois d'Alger, trad, De Grammont, présentation Abderrahmane Rebahi, Alger livre éditions, Alger, 2004, p 24. بينما توفيت الملكة الكاثوليكية إيزابيلا (Isabelle) سنة 1504. Fernand Braudel Op. Cit p 50.

[2]- شارل فيرو، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، تعريب محمد عبد الكريم الوافي، منشورات جامعة قاريونس، ط 03، 1994، ص 73.

[3]- إبراهيم سعيود، "لمحة عن الصراع الجزائري الإيطالي خلال العهد العثماني"، بمجلة دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، ملحقة بوزريعة، جامعة الجزائر، ع 07، س 2007، ص 206. ومعروف تاريخيا أن هذه المعاهدة ضمنت للطرفين هدنة مؤقتة سرعان ما انتهت

مصاهرته مع ملوك بعض أوربا حيث زوجهم أخواته[1] ضف إلى ذلك عامل مهم أيضا كان قد سهّل من مهمة الإسبان في بسط نفوذهم على البحر المتوسط، وتمديد ساحل شمال إفريقيا، وهو المتمثل في ضعف وتفكك الدويلات المغاربية وريثة الموحدين بالمنطقة. حيث لم يكن لا الحفصيون، ولا الزيانيون، ولا المرينيون، لهم القدرة الكافية للدفاع عن سواحلهم ومنع الخطر الإسباني عليها[2] في ظل عزم الإسبان على احتلال الساحل الإفريقي والاستقرار فيه، وذلك بناء على ما جاء في مراسلة فرديناند في ماي 1510 إلى الدون بيدرو نافارو والتي جاء فيها ما يلي:" أظن أيضا، على حسب ما أعلمتموني به، أنه يتعين علينا القيام بعدة حملات إذا أردنا السيطرة على إفريقيا، وينبغي أن نحتل مدينة وهران وبجاية وطرابلس، و أن نسكنها بالمسيحيين"[3].

2- الحملة الإسبانية على طرابلس واحتلالها:

كان للعلاقات التجارية بين طرابلس وإسبانيا دور كبير في وقوع طرابلس تحت الاحتلال الإسباني، حيث لعب تجار إسبانيا دور المخابرات، ومما ينقل عنهم أنهم أعلموا فرديناند الكاثوليكي بقولهم: "ما رأينا بلدا أكثر منها مالا وأقل سلاحا وأعجز أهلا عن مدافعة العدو"[4] وهو الوصف الذي حمّس فرديناند المنتشي

وعادت الحروب من جديد بدعم من خير الدين بربروس لفرانسوا الأول سنة 1534. ثم اشتد الصراع بين إسبانيا وفرنسا من جديد حتى زحف شارلكان على إقليم البروفانس (جنوب فرنسا) في جويلية 1536 مما اضطر فرانسوا الأول إلى الاستنجاد بجيش السلطان العثماني سليمان القانوني. المرجع نفسه، ص 206، 207.

[1]- الباروني، مرجع سابق، ص ص 04 – 07.

[2]- محمد علي داهش، الدولة العثمانية والمغرب (إشكالية الصراع والتحالف)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 01، 2011، ص 14.

[3]- Braudel, Op. Cit, p 53, 54.

[4]- أحمد الناثب الأنصاري، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، ج 01، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا، ص 185. وهذا ما يذهب إليه أيضا شارل فيرو، مصدر سابق، ص 75. لكن العبدري

بانتصارات قائده بيدرو نافارو في الجزائر والتي أدّت إلى احتلال المرسى الكبير في 05 سبتمبر 1505، ووهران في 17 مارس 1509 ثم بجاية في 05 جانفي 1510، على ثمن حملته على طرابلس.[1]

(1245 – 1320 م) في رحلته زار طرابلس في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي بين سنتي 1289 و 1292 م، ووصفها بغير تلك الصفات فنجده يقول عنها:"ثم وصلنا إلى مدينة أطرابُلُس، وهي للجهل مأتم وما للعلم بها عرس، أقفرت ظاهرا وباطنا، وذمّها الخبير بها سائرا وقاطنا، تلمع لقاصدها لمعان البرق الخُلّب (أي الذي لا غيث فيه)، وتريه ظاهرا مشرقا والباطن قد قطّب، اكتنفها البحر والقفر، واستولى عليها من عربان البر ونصارى البحر النفاق والكفر، وتفرقت عنها الفضائل تفرق الحجيج يوم النفر، لا ترى بها شجرا ولا ثمرا، ولا تخوض في أرجائها حوضا ولا نهرا، ولا تجتلي روضا يحوي نورا ولا زهرا ...".ينظر: محمد العبدري، رحلة العبدري، تحقيق علي إبراهيم كردي، ط 02، دار سعد الدين، دمشق، 2005، ص 184، 185. كما أنّ الشيخ حسين الورتيلاني (1713 – 1779 م) الذي زار طرابلس سنة 1764 خلال رحلته إلى الحج، له فيها رأي مشابه إذ يقول:"طرابلس هي بلدة صغيرة، مدن تونس القَيْوَة أكبر منها، أعني القيروان وسفاقس وسوسة، وما أشبهها، وطرابلس أهلها أعلى البداوة والسذاجة، وهي الآن ليس فيها علم ولا علماء، ولا حرفة رفيعة، ولا تجارة كبيرة، ولا معالم شهيرة، أهلها ضعفاء قد توالت عليهم الحروب والفتن". الحسين الورتيلاني، الرحلة الورتيلانية، أو نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، بسلسلة رحلات جزائرية (05)، تعليق ابن مهنا القسنطيني، تقديم محفوظ بوكراع وعمار بسطة، مج 01، دار المعرفة الدولية، الجزائر، 2011، ص 273 /ه 01. ومع ذلك فيظهر من كلام الشيخ الورتيلاني في رحلته أن أهل مدينة طرابلس وضواحيها لا يزالون على طبيعتهم البسيطة. فقد صورهم في غاية الكرم واللطف: "...كالأخ في الله سيدي محمد بن عبد الخالق، إذ نزلنا قرب بلاده، وأتانا بخروف ضيافة لنا جزاه الله عنّا خيرا". كما ذكر أن أهل الخير فيها كثير وهمتهم بناء المساجد والمدارس فذكر أن قائد عمورة "بنى مدرسة عظيمة متقنة ما رأيت أظرف منها وأحسن من صنعتها، وجعل فيها بيوتا متعددة، ومطهرة طيبة، ومسجدا في غاية الحسن يستحسنه الناظر، وجعل أيضا بيتا للتدريس وغَرَس النخل الجيد، وحبسها على المدرسة، وزاد أحباسا عليها عظيمة، وحاصل خدمته إنما هي على طلبة القرآن وطلبة العلم" ومن العلماء ذكرا الكثير–رغم أنه وصفها سابقا بالجهل– فقال:"...وحاصل خدمته (قائد عمورة) إنما هي على طلبة القرآن وطلبة العلم بأن جعل معلما للقرآن والعلم وهو الفاضل والتقي الكامل تلميذ الشيخ التواتي سيدي إبراهيم الجمني أي الكبير الذي هو تلميذ الشيخ الخرشي وهو نور جربة".الورتيلاني، المصدر نفسه، ص 274، 275.

[1]– للمزيد حول أحداث الساحل الجزائري هذه يرجى العودة إلى: Diego de Haedo,

بعد انتصارات الدون بيدرو نافارو في بجاية، وقد كان على رأس جيش قوامه 8000 رجل كان فرديناند قد كلف ملك صقلية بتموينهم. وبتاريخ 07 جوان 1510 "اتجه الأسطول الإسباني إلى فافينيانا (Favignana) في صقلية لينتظر السفن القادمة من نابولي ومن موانئ صقلية لمهاجمة مدينة طرابلس حسب التعليمات التي تلقاها من الملك فرديناند الكاثوليكي".[1]

سار الجيش الإسباني من مدينة فافينيانا يوم 15 جويلية 1510 مرورا بمالطا حيث استنجد بأهل الخبرة ممن زاروا طرابلس وسواحل شمال إفريقيا، مثل جوليانو أبيلا المالطي (Giuliano Abela)، وأحد ضباط جيش البندقية وهو الكولونيل جيرولامو فيانيلّو (Girolamo Vianello).[2] كما تدعمت بخمس عشرة سفينة بقيادة غارسيا ألفاريز الطليطلي (Garcia Alvarez de Toledе) والدوق ألبا (Albe).[3]

دخلت الجيوش الإسبانية المقدرة بستين سفينة إلى جانب الزوارق الحربية والمراكب بمجموع "15 ألف جندي إسباني، وثلاثة آلاف جندي إيطالي، وعدد من المرتزقة والمغامرين"[4] بقيادة الدون بيدرو دي نافارو مدينة طرابلس في يوم شديد

Topographie et Histoire générale d'Alger (La vie à Alger au seizième siecle), trad. De l'espagnole Adrien Berbrugger et Monnereau, Présentation de Abderrahmane Rebahi, Alger Livre Edition, Alger, 2004, pp 23 – 25. وكذلك: **Diego de Haedo, Histoire des rois d'Alger, Op. Cit, p 18 et suivantes.**

[1]– الباروني، مرجع سابق، ص 31. وقد بلغ مجموع تلك الزوارق والمراكب الستين زورقا ومركبا إضافة إلى 05 سفن مالطية. نفسه، ص 32، 33.

[2]– نفسه، ص 31. ويصف خير الدين بربروس الإسبان في مذكراته بقوله:"إن كفار إسبانيا لا يشبهون غيرهم من كفار الإفرنج، لقد كانوا في غاية الظلم والغرور، متعطشين للدماء كالكلاب المسعورة". خير الدين بربروس، مذكرات خير الدين بربروس، تر. محمد دراج، دار الأصالة، الجزائر، ط 01، 2010، ص 158.

[3]– فيرو، مصدر سابق، ص 79.

[4]– خليفة محمد التليسي، حكاية مدينة، طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب، ط 03، دار الكتب الوطنية، ليبيا، 1997. ص 67.

الحرّ، مقدّس لدى الإسبان إذ يعتبرونه يوم القديس جاك الرسول وهو يوم الخميس 25 جويلية 1510 م[1] وقد بدأت نيران المدافع الإسبانية على المدينة على الساعة التاسعة صباحا على الساحل من الجنوب الشرقي للمدينة التي سقطت إثر مقاومة بطولية وصفتها الكتابات الإسبانية فقالت: "كان هناك عدد كبير من الموتى بين العرب، وهم من الكثرة بحيث لا تجد موطئا لقدمك إلا فوق الجثث ويقدر عدد القتلى بين العرب بحوالي خمسة آلاف أما الأسرى فهم أكثر من ستة آلاف".[2] وقد كان أكثر الشهداء بالجامع الكبير الذي سقط فيه ألفان من الرجال والنساء والولدان بعد أن التجأوا إليه من جراء وحشية دخول الجيش الإسباني إلى المدينة قبل أن يضطر سكانها إلى الهجرة إلى المناطق المجاورة وإلى الجبال، فالتحقوا بتاجوراء التي تبعد عن طرابلس بحوالي عشرين كلم من جهة الشرق، كما اعتصموا بجبال غريان هروبا من خطر الحامية الاسبانية التي سكنت المدينة.[3] فيما أسر الشيخ سي عبد الله بن شرف وزوجته وأبناؤه، ونفوا إلى ميسّينا (Messina) بصقلية. فيما نفي الآخرون إلى باليرمو التي وصلها أكثر من 1400 أسيرا، باعهم الإسبان في سوق النخاسة في المزاد

---

[1]- نفسه، ص 67.

[2]- نفسه، ص 68. وكذلك الباروني، المرجع السابق، ص 38. بينما يذهب شارل فيرو إلى أن بيدرو نافارا دخل مدينة طرابلس ليلا دون أن يشعر به أحد من سكانها حتى تمت السيطرة عليها، مما اضطر أهلها إلى الفرار في ظُلَم الليل. فيرو، الحوليات الليبية، مصدر سابق، ص 69. وهو هنا يعتمد على ابن غلبون الذي يقول أيضا نفس الكلام. لكنها رواية مستبعدة. وقد اتضح لنا من خلال قراءاتنا لكتاب ابن غلبون، أن روايات ابن غلبون وكتابه التذكار لابد من التحقق منها، لأنها على الأقل في تقديرنا، غير مضبوطة سواء من حيث الأحداث أو الوصف أو حتى السنوات الهجرية وما يقابلها من أحداث تاريخية فهي مختلفة أحيانا بحوالي نصف قرن. كما أن معلوماته تتعارض أحيانا من حيث الوصف مع الكتابات التاريخية الأخرى.

[3]- الأنصاري، مصدر سابق، ص 186. وكذلك: ابن غلبون، تاريخ طرابلس الغرب المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، نشر وتعليق الطاهر أحمد الزاوي الطرابلسي، المطبعة السلفية، القاهرة، 1349 هـ، ص 92.

العلج عبيدا بأسعار تراوحت بين 03 إلى 05 دوقات على عكس اليهود الذين اشتراهم يهود مثلهم وحرروهم. أما عدد قتلى الجيش الإسباني فكان 300 إسبانيا منهم أميرال الأسطول وضابط في الجيش برتبة كولونيل إضافة إلى أحد النبلاء، فيما أطلقوا سراح 150 من الأسرى المسيحيين الذي كانوا بطرابلس حسب الرواية الإسبانية.[1]

وحتى يتسنى للإسبان الاحتفاظ بطرابلس، كان عليهم الاحتفاظ بجربة التونسية التي كانت تهدد الأمن الإسباني بالمنطقة،[2] كما تهدد طرق التجارة والاتصال بين طرابلس وصقلية، وبين طرابلس وإسبانيا، بسبب النشاط الذي كان يمارسه الإخوة بربروس بها، بدعم من السلطان العثماني سليم الأول، والذي كان قد وجه إلى أمير تونس رسالة حملها إليه خير الدين بربروس جاء فيها:"إلى أمير تونس، إذا وصلك كتابي هذا عليك أن تعمل به، واحذر أن تخالفه، وإياك أن تقصر في تقديم أي عون لخادمينا: عروج وخير الدين".[3] ولهذا سار الدون بيدرو نافارو بحملة لإخضاعها في أوت 1510 لكنه فشل. وقد اغتنم سكان تاجوراء والمناطق القريبة من طرابلس فرصة غياب الجيش الإسباني عن المدينة التي لم يبق بها سوى 03 آلاف جندي إسباني، وهاجموا المدينة لكنها صمدت بسبب قوة تحصيناتها. وقد استمر الحصار إلى

---

(1)– الباروني، مرجع سابق، ص 38، 39.

(2)– تتربع جزيرة جربة التونسية على مساحة 600 كلم^2، تقع على الساحل الجنوبي لخليج قابس وهي قريبة من السواحل الليبية. مجهول، سيرة المجاهد خير الدين بربروس، تحقيق وتقديم وتعليق، عبد الله حمادي، دار القصبة، الجزائر، 2009، ص 59 / هـ 01.

(3)– خير الدين بربروس، مذكرات خير الدين بربروس، مصدر سابق، ص 68 وما بعدها. في الكتاب تفصيل هام جدا لصراع الإخوة بربروس مع الإسبان على الجزائر وتونس. وقد كانت تونس تمثل الطريق إلى طرابلس. كما يرجى العودة أيضا إلى كتاب: شارل فيرو، تاريخ جيجلي، تر. عبد الحميد سرحان، دار الخلدونية، الجزائر، 2010، ص 94. ولمزيد من التوسع حول الصراع على جربة التونسية بين الإسبان والإخوة بربروس والأمير الحفصي مولاي الحسن بتونس يرجى العودة إلى: Diego de Haedo, Histoire des rois d'Alger, Op. Cit, p 45 et suivantes.

أن عاد جيش بيدرو الفاشل في مهمته في اخضاع جربة، وقد تعطل وصوله إلى غاية فيفري 1511. فقرر الإسبان تفجير الجيش الطرابلسي المحاصر للمدينة وأعدوا له لغما كانت نتيجة انفجاره ضحايا كثر ومنهم الاسبان وعلى رأسهم بيدرو ناڤارو في حد ذاته[1].

ويمكننا أن نصف السلطة الحاكمة بمدينة طرابلس خلال هذه الفترة بأنها كانت سلطة هشّة، حيث أن حكومة الشيخ عبد الله التي حكمت بداية من سنة 1492، والتي دخل الإسبان مدينة طرابلس على عهدها، بل وحتى حكومات الشيخ منصور (1460 – 1471) ويوسف (1471 – 1480) ومامي الشريف (1480–1492)[2] التي حكمت منذ انفصال طرابلس عن الحفصيين بتونس سنة 1460 كانت هي الأخرى حكومات هشة. فلم يكن الشيخ عبد الله صارما في جمع الجباية من الشعب لتحصين المدينة وتقوية الجيش، وبالتالي فقد تميزت المدينة بالضعف العسكري والغياب الفعلي للسلطة الحاكمة رغم المكانة المحترمة للشيخ عبد الله عند سكانها.[3]

من هنا نستطيع القول أن رأي خبراء شارلكان من التجار كان خاطئا من حيث القوة التي تتمتع بها المدينة، ولكنهم أصابوا حين اعتبروها مدينة ابتعد سكانها عن منطق وتفكير الحرب ربما بفعل الهدوء الذي ألفته منذ مدة.[4]

---

[1]– الباروني، مرجع سابق، ص ص 58 – 60.

[2]– فيرو، الحوليات الليبية، مصدر سابق، ص 67 كانت طرابلس آنذاك تابعة إلى حكم الأسرة الحفصية بتونس، والتي كان على رأسها أبو عمر أحمد بن محمد الحفصي، والذي بدأت طرابلس تخرج عن طاعته في ظل التفرقة التي كان يبثها المسيحيون الإسبان بينهما. وقد فشل أحمد الحفصي في اعادة طرابلس إلى طاعته والولاء له خاصة بعد معركة زوارة التي جرت بين الطرفين مطلع ستينيات القرن السادس عشر الميلادي، والتي فقد فيها جيش الحفصيين ثلاثة آلاف جندي. فيرو، المصدر نفسه، ص 66، 67. وزوارة هي قرية صغيرة بضواحي طرابلس من جهة الغرب، وربما كان أغلب سكانها إباضيين قبل أن يعتنقوا المذهب المالكي. الورتيلاني، مصدر سابق، ص 272 / هـ 01.

[3]– نفسه، ص ص 13 – 24.

[4]– وهذا ما يذهب إليه أيضا صاحب التذكار، يراجع: ابن غلبون، مصدر سابق، ص 92.

ولذا يمكن القول أنه لولا الاحتياطات التي اتخذها بيدرو نافارو من خلال التعداد الضخم للحملة، ومن خلال القيادة التي اختارها من الضباط الإيطاليين والمالطيين وهم الذين يتمتعون بالخبرة الحربية الكافية لإخضاع المدينة منذ تجربتهم معها تحت راية النورمانديين. وقوة المدينة هذه تبدو واضحة من خلال رسالة قائد الحملة شخصيا الكونت بيدرو دي نافارو إلى هيغو دي مونكادا الذي كان يشغل منصب نائب الملك بجزيرة صقلية والتي جاء فيها:"سيدي، إن هذه المدينة لهي أكبر في واقعها مما كنت أتصور ورغم أن الذين يشيدون بها ويطرونها يتحدثون عنها حديثا حسنا، إلا أني أرى أنهم لم يقولوا إلا نصف الحقيقة. وبين المدن التي رأيتها في هذا العالم لم أجد مدينة تضاهيها سواء في نظافتها أو تحصيناتها حتى لتبدو معها مدينة امبراطور أكثر منها مدينة لا تنتمي لأي ملك خاص".[1]

3- استنجاد سكان طرابلس الغرب بالباب العالي:

والدارس لتاريخ ليبيا في العصر الحديث، يلاحظ بوضوح أن الحامية الإسبانية قد تمكنت من مدينة طرابلس، بل وازداد خطر وقوة شوكتها. ولذا اضطر سكان تاجوراء ومنهم الوافدون عليها من طرابلس إلى تشكيل وفد سنة 926 هـ/ 1520 م، والاتصال بخليفة المسلمين السلطان العثماني سليمان الأول (القانوني) طلبا للنجدة.[2] فاستقبلهم السلطان وأكرمهم، ولبى نداءهم، وأمّر عليهم مراد آغا واليا عليهم، وكلّفه بتحرير مدينة طرابلس وطرد الحامية الاسبانية منها. إلا أنه عجز عن تحريرها لقلة

---

[1]- التليسي، مرجع سابق، ص 68.

[2]- السلطان سليمان القانوني هو سليمان بن سليم الأول، تولى الحكم سنة 926 هـ / 1520 م، واستمر حكمه مدة ست وأربعين سنة كاملة، وهي أطول فترة مقارنة مع كل سلاطين الدولة العثمانية. تميز عهده بالعدل والقوة والنظام والجهاد والعمران وازدهار الحركتين الأدبية والعسكرية، أثر على أوربا حتى أطلقت عليه اسم سليمان القانوني. من أجل الالمام به أكثر، يراجع: محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، دار القلم، دمشق، ط 03، 2012، ص 89 وما بعدها.

الجند مقابل قوة الحامية الإسبانية.[1] ولتزايد تعداد الأوربيين بها بعد قرار نائب ملك جزيرة صقلية هيغو مونكادا الصادر في 16 أكتوبر 1511 والذي نص على "تقديم تسهيلات لمن يرغب في السفر والإقامة بطرابلس".[2] وهي التسهيلات التي تمنحهم الأرض والمال والامتيازات الهامة، وعلى رأسها الاعفاء من الضرائب، وفتح باب التجارة أمامهم على مصراعيه. لكن نجد كل تلك المحاولات الاستيطانية قد فشلت أمام الخطر الذي كان يشكله سكان المناطق المجاورة لطرابلس على أي معمر قدم إلى المنطقة. فاضطر بيدرو نافارو إلى اللجوء إلى سياسة اللين تجاه السكان، وعرض عليهم التعاون، وأفرج عن حاكم المدينة السابق الشيخ عبد الله بن شرف وأعاده من منفاه بميسّينا إلى طرابلس لتوظيفه في تهدئة السكان.[3]

وفي ظل ذلك، كان مراد آغا وسكان تاجوراء والمناطق المجاورة لها، يتحينون فرصة الانقضاض على الحامية الإسبانية بطرابلس. وقد ساعد بقاء مراد آغا واليا على تاجوراء في دراسة الوضع العام الذي يمهد لتحرير مدينة طرابلس فإضافة إلى محاولاته المتكررة في استعادة المدينة انطلاقا من مدينة تاجوراء التي مثلت منطلق العمليات العسكرية ضد الحامية الإسبانية بطرابلس،[4] كان ينتظر الدعم العثماني ليتمكن من الظفر بالمدينة وبطرد الحامية الإسبانية منها. وهو الشيء الذي كلف إسبانيا وشارلكان الكثير من المال والجهد والوقت وحتى الخوف على مكانته وسمعته بين ملوك أوربا في حالة ما سقطت طرابلس، مما جعله يتخلص منها بمنحها لفرسان القديس يوحنا.

---

[1]- الأنصاري، مصدر سابق، ص 188.

[2]- التليسي، مرجع سابق، ص 70.

[3]- نفسه، ص 71.

[4]- نفسه، ص 70.

4- شارلكان يضع طرابلس الغرب تحت سيطرة فرسان القديس يوحنا:

كانت الفترة الممتدة بين 1522 و 1535 من أصعب الفترات على فرسان القديس يوحنا، إذ تمثل سنة 1522 تاريخ طردهم من جزيرتهم المفضلة رودس، بينما تمثل سنة 1535 السنة التي منحهم فيها قيصرهم وإمبراطورهم المقدس شارلكان مدينة طرابلس.

كان فرسان القديس يوحنا أول الأمر منظمة مسيحية خيرية إنسانية، تتخذ من مدينة القدس مقرا لها، فتساعد المسيحيين من حجاج القدس. قبل أن تتحول -حين اندلعت الحروب الصليبية- إلى منظمة عسكرية، مهمتها معالجة الجرحى المسيحيين، واستمرت على ذلك إلى أن طردها صلاح الدين الأيوبي حين حرر بيت المقدس. فخرجت المنظمة إلى مدينة عكا إلى غاية سنة 1291 م حين طردوا نهائيا من فلسطين والتحقوا بجزيرة رودس[1] وأصبحوا يدينون بالولاء إلى الإمبراطورية المسيحية، لاسيما بعد سقوط الأندلس وظهور القوة الإسبانية في حوضي المتوسط وقد بارك البابا كليمونت السابع مطلع القرن السادس عشر الميلادي مساعيهم في خدمة الصليبية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط.

بفعل ذلك، وفي ظل الصراع العثماني الإسباني على البحر المتوسط وجزره، صارت منظمة فرسان القديس يوحنا مصدر ازعاج للسلاطين العثمانيين، فحاصرهم السلطان سليمان القانوني وطردهم نهائيا من جزيرة رودس يوم 26 ديسمبر 1522 م وهو يوم احتفال المسيحيين كما هو معلوم، وبالتالي طردهم في يوم عيد ديني وهم منظمة دينية مسيحية كما مر بنا. ورغم أنه قد عفا عنهم وأطلق سراحهم، إلا أنه منعهم من البقاء في قلعتهم بجزيرة رودس، ففتح البابا أمامهم المدن الإيطالية واختار قائدهم الأب فيليبو فيّار دو ليسل آدام (Filippo villiers de l'Isle Adam) النزول بشفيتافيكشيا (Civitavecchia) قبل أن يطلب من شارلكان منحه وفرسانه جزيرتي مالطا وقوزو. فوافق شارلكان بشرط أن يتكفلوا بحماية طرابلس التي كانت تشكل له

---

[1]- الباروني، مرجع سابق، ص 75 وما بعدها.

هاجسا من حيث التكاليف، ومن حيث التخوف من فقدانها أمام هجمات أهل تاجوراء، وربما حملات الجيش العثماني التي لم يكن شارلكان يستبعد حدوثها في أي لحظة. فكان شارلكان متخوفا من فقدانها وما يلحق به من إهانة بسبب ذلك في أعين الدول الأوربية والمسيحيين عامة.[1]

إذن، بفعل الظروف التي سادت المتوسط آنذاك، ومنها خيرة فرسان القديس يوحنا وسكان ولايات إيطاليا الجنوبية في الصراع في هذه المنطقة، وكذا الخناق الدولي الذي أصبح مفروضا على شارلكان، ومنه التضييق العثماني في سواحل المغرب العربي، وصراعه مع فرانسوا الأول الفرنسي، وتعدد أطماع البرتغال في سواحل البحر الأحمر، وظهور حركة مارتن لوثر التي استقطبت المسيحيين وجعلتهم يلتحقون به منفصلين بذلك عن البابا وكنيسة روما... كل ذلك دفع شارلكان ، وبعد تدخل من البابا، إلى تسليم طرابلس إلى فرسان القديس يوحنا،[2] وهم التابعين لإمبراطوريته، فرض سلطانهم على طرابلس مقابل التنازل لهم عن حكم مالطا. لأن الفرسان لم يكونوا يرغبون في أخذ زمام طرابلس بفعل الوضعية الجيو- استراتيجية التي كانت عليها بالنسبة لهم، فهم فيها معرضون لجميع أنواع الخطر بداية من هشاشة دفاع المدينة مقابل قوة الجيش العثماني، وعزم سكانها على تحريرها. وكذلك من التكلفة المادية التي كانت تكلف خزينة شارلكان الذي كان يصرف عنها 12 أوقية سنويا كرواتب للجند، إضافة إلى عدم أمن الاتصال بينها وبين المناطق المسيحية بسبب خطر الإخوة بربروس والسيطرة العثمانية على المنطقة... ولذا جاء في رسالتهم إلى شارلكان:"إن هذه المنظمة التي وجدت أن الحظ يعاكسها في جميع ما أقدمت عليه، فإنها تقبل الجزيرتين مالطا وقوزو، إذ أنها لم تجد مكانا آخر ملائما تتخذه مركزا لها لتعلن الحرب التي لا هوادة فيها على المسلمين... وبما أن جلالتكم القيصرية عندما

---

[1]- نفسه، ص 78، 79.

[2]- داهش، مرجع سابق، ص 16.

طلب منكم التنازل عن هاتين الجزيرتين طلبتم أن تقبل معهما مدينة طرابلس بكل ما يتبعها، فإننا قبلنا هذا على الرغم من ضعف قوى المنظمة رغبة منا في خدمة جلالتكم القيصرية. وفي الوقت نفسه نأمل أن تكونوا لنا سندا وعونا حيثما لا تكفي قوانا في خدمة الله للاحتفاظ بتلك الأماكن وحماية المنظمة نفسها".[1] وقد ردّ شارل الخامس عن هذه الرسالة من إيطاليا حيث كان يتقلد تاج الإمبراطور من البابا كليمونت السابع، ومما جاء في رسالته:"قد وهبْنا القصر (يقصد قصر العزيزية بطرابلس) والأماكن وجزائرنا في طرابلس ومالطا وقوزو إلى منظمة فرسان القديس يوحنا لإحياء المنظمة ولاستقرارها، وهي هبة خالصة عن رضا منّا واقتطاعا دائما شريفا حرّا، مقابل عقاب واحد تسلمه المنظمة في عيد جميع القديسين (01 نوفمبر) من كل عام في يد نائب ملك صقلية... وأن الإمبراطور يسمح للفرسان بإبقاء الأسلحة والمدافع الموجودة في قصر طرابلس، وعلى قلاعها لمدة ثلاث سنوات، لاستعمالها ضد الأعداء إلا إذا رغب صاحب الجلالة القيصرية تمديد الأجل".[2] وتمت الموافقة النهائية من الفرسان في 25 جويلية 1535 م دون أن يرحل إليهم جميعهم، وتم تعيين القس غاسبار دي سانغوسّا (Gaspare di Sanguessa) الذي تولى الحكم فيها خلفا للإسباني فرديناند ألاركون (Alarcone Ferdinando).[3]

ومن أجل المحافظة على مدينة طرابلس تحت سلطة ما بها من الفرسان، اشترط القائد أداء يمين القسم على طاعته والامتثال لأوامره داخل المدينة، التي أصبحت بمثابة قلعة عسكرية محصنة، وسهر على أداء الجميع مظاهر العبادة في كنيسة القلعة، والحرص على صيانة أسلحتهم، ومراقبة صلاحيتها، ومدى سلامة خيولهم، استعدادا لأي هجوم مباغت من تاجوراء والمناطق القريبة من المدينة. كما حرص على مراقبة

---

[1]- البارووني، مرجع سابق، ص 85.

[2]- نفسه، ص 86.

[3]- نفسه، ص 86، 87.

الأسرى الليبيين واخراجهم من طرابلس، إلا عدد قليل منهم لا يتجاوز الأربعين لتوظيفهم في الأشغال الشاقة وتنظيف المدينة... كما فرض الإتاوة أو الضريبة على السكان، وسهر على توفير بعض الغذاء لهم ولليهود الذين لم يخرجوا من المدينة، مع مراقبتهم ومراقبة كل الأبواب والأسوار بحراسة عالية المستوى. كما أنشأ الفرسان بأسوار طرابلس متجرا لبيع بعض المواد الغذائية لسكان الجوار من الليبيين والعثمانيين، بشرط عدم الدخول بأسلحتهم وخيولهم.[1]

هذه السياسة، إضافة إلى النقمة الكامنة في صدور سكان جوار طرابلس، دفعتهم سنة 1545 إلى الثورة على الفرسان، معتمدين على الحماية العثمانية التي يتمتع بها مراد آغا. وكانت قبيلة المايا[2] الطرابلسية هي أول القبائل الثائرة والرافضة لدفع الضريبة. فسيّر الفرسان حملتهم التي ضمت ثمان سفن، فخربوا ما وجدوه بالقبيلة التي غادرها أغلب أبنائها لادراكهم باستحالة المجابهة. وأسر الفرسان الباقي وكانوا حوالي 425 أسيرا تم ارسالهم إلى طرابلس.[3]

وبسبب عدم استقرار الوضع في طرابلس لهذه الفئة من الفرسان، طلب حاكم مدينة طرابلس خوان لافاييت (La Vallette) من قائد الفرسان القدوم إلى طرابلس واتخاذها مقرا رسميا لهم، لكن الفرسان لم يكونوا يحبذون هذا الأمر، فاختاروا أن يتم الانتقال تدريجيا متزامنا مع تجديد حصون وقلاع المدينة، عزما على طرد مراد آغا من تاجوراء، واستعدادا لأي هجوم عثماني قد يقوده درغوث باشا خليفة خير الدين المتوفى بمركزه بقلعة بالبوسفور في 04 جويلية 1546.[4] خاصة وأن درغوث باشا قد

---

[1]– التليسي، مرجع سابق، ص 74، 75.

[2]– كانت قبيلة الماين، إلى أواسط القرن الثامن عشر، لا تزال قرية صغيرة جدا وقد سماها الورتيلاني – الحاية–. الورتيلاني، الرحلة، مصدر سابق، ص 272 / هـ 02.

[3]– الباروني، مرجع سابق، ص 111.

[4]– Adrien Berbrugger, Le Pégnon d'Alger, ou les origines du gouvernement Turc en Algérie, 06 ème édition, Belles-Lettres, Alger, 2012, p 28.

انتشرت سمعته على كامل حوضي البحر المتوسط، بفعل انتصاراته على جيوش أوربا المسيحية، بما فيها الجيوش الإسبانية في إيطاليا، وسردينيا، وصقلية، وجزر اليونان، وكورسيكا. هذه الأخيرة التي وقع أسيرا بها سنة 1540 قبل أن يفرض عليهم السلطان العثماني اطلاق سراحه سنة 1544. فرجع درغوث إلى قيادة الأسطول العثماني وحرر الساحل التونسي في سوسة وصفاقس والمنستير، وحاول تحرير المهدية وجربة سنة 1551، ثم توجه يوم 18 جويلية 1551 نحو طرابلس.[1]

5- تحرير طرابلس الغرب ودخولها تحت الحكم العثماني:

مهّدت اجراءات مراد آغا المذكورة سابقا الأجواء لتحقيق النصر، خاصة من خلال تقوية جبهته الداخلية بالمزيد من تحقيق العدل، وتحذير الناس من أي ثقة في الإسبان. وقد جاءت الفرصة مواتية حين أغار جيش نابولي وجنوة على مدينة المهدية بتونس سنة 957 هـ / 1550 م، فعاثوا فيها فسادا قبل أن يحتلوا مدينة جربة أيضا. فأرسل السلطان العثماني سليمان القانوني القبودان سنان باشا، وبياله باشا لمساعدة درغوث باشا. وبالتنسيق مع مراد آغا فرضوا الحصار على مدينة طرابلس ابتداء من يوم 18 جويلية 1551، بجيش قوامه 150 سفينة حربية، على متنها 17 ألف جندي و 600 فارس على رأسهم سنان باشا، فاحتل غوزو وانتزعها من الفرسان. ومنها اتجه إلى طرابلس التي وصلها في الفاتح من أوت من السنة نفسها، وأرسل إلى حاكم المدينة فايير يطلب تسليم المدينة دون دماء لكنه رفض مما خلق له عصيانا داخل قلعته.

وفي يوم 09 أوت بدأ الهجوم العثماني على طرابلس، واستمر القصف المدفعي أسبوعا كاملا، ولما أدرك فايير أن الهزيمة لا مفر منها، اتجه إلى سنان باشا رفقة أحد مساعيه للتفاوضفكبّله سنان باشا بعد أن رفض دفع تكاليف الخسائر الحربية، وأرسل مساعده لانذار الناس في المدينة بأن أيّ محاولة للمكابرة منهم سيكون مآلها الفشل ومصيرهم التقتيل، ولذا عليهم أن يفتحوا أبواب المدينة أمام الجيش العثماني. وأرسل

---

[1]- نفسه، ص 135.

داعيا إلى المدينة يدعو الناس "اخرجوا من القصر واتركوا سلاحكم وأنتم أحرارا".[1] فخرج سكان المدينة من النصارى، ودخل درغوث باشا وسنان باشا ومعهما مراد آغا مدينة طرابلس يوم 16 أوت 1551 م، معلنين في حفل بهيج عن انتهاء السيطرة المسيحية الإسبانية على طرابلس وعودتها إلى طبيعتها التاريخية؛ مدينة إسلامية تابعة إلى الحضارة الشرقية الإسلامية. وسمح سنان باشا للفرسان يوم 18 أوت بمغادرة المدينة على متن سفن فرنسية وكان عددهم حوالي 600 فارس.[2]

---

[1]– نفسه، ص 135.

[2]– تشير بعض الدراسات الأخرى إلى أن الحصار العثماني لمدينة طرابلس كان قد بدأ يوم 08 اوت، وان فتح مدينة طرابلس كان يوم 14 أوت. ينظر: المنهل، مصدر سابق 159. هذا، واهتم درغوث باشا ببناء مدينة طرابلس وتقوية تحصيناتها لا سيما السور الغربي مما يعطيها الأمان من جهة البحر لصد الهجمات الأوربية، وقد وصف أسقف مدينة كاتانيا الإيطالية، السيد كراتشولو، حين وقع أسيرا لدى درغوث باشا، في رسالة إلى هيغو دو مونكادا سنة 1561:"إنه (الحصن الغربي للمدينة على الواجهة البحرية) في حالة انجاز، هذا التحصين سيتطلب الأمر قوة مسيحية كبيرة للاستيلاء على المدينة، وقد استغرق العمل في برج التراب (يقصد الحصن المذكور) سنتين، وتمت عملية انشائه بدقة وعناية لم يدخر فيهما الجهد والوسائل، كما أحيط بسور مرتفع". كما بدأ درغوث باشا في انجاز دار البارود التي أكمل انجازها خليفته علج علي. هذه التحصينات التي منعت فرسان القديس يوحنا من القيام بعد ذلك بأي هجومات مباشرة اللهم إلا ما كان غير مباشر مثل نزولهم بالقرب من زوارة على الساحل، أو تشجيعهم بعض الحركات التمردية بطرابلس وحتى جربة التونسية، مثل تمرّد يحيى الجبالي حين حاصر طرابلس سنة 1584 على عهد مصطفى باشا، والذي دام أربع سنوات كاملة 1584 – 1588، وكان قد تلقى حينها المتمرد يحيى الجبالي وعودا بالمساعدة من طرف فرسان القديس يوحنا، لولا وصول المساعدات العثمانية التي قضت على الثائر وسارت بجثته إلى الباب العالي.

الخاتمـــــــة:

من خلال هذه الدراسة، تبين أن التحرشات الإسبانية على طرابلس الغرب، كانت امتدادا لمحاولة السيطرة التي حاولت إسبانيا فرضها على الضفة الجنوبية للبحر المتوسط بعد سقوط الأندلس. حيث حاول فرديناند الكاثوليكي احتلال سواحل المغرب العربي كاملة كما جاء في رسالته سنة 1510 إلى قائد جيوشه بيدرو نافارو، كما كانت إسبانيا تطمح إلى تهجير المعمرين المسيحيين إلى طرابلس الغرب وكل سواحل إفريقيا الشمالية، حتى تبقى المنطقة كلها تحت نفوذها. ولولا قوة الأسطول العثماني، ونشاط الإخوة بربروس، لما اضطر شارلكان إلى تحويل طرابلس إلى سلطة فرسان القديس يوحنا، الذين كانوا هم الآخرون تحت سلطان امبراطوريته التي باركها البابا كليمونت السابع. وقد كان هذا السلوك من شارلكان، استشرافا لواقعا حربيا لم يعد لصالحه بالمنطقة. وهو ما انتهت إليه طرابلس الغرب فعلا بتحريرها من طرف درغوث باشا وسنان باشا العثمانيين سنة 1551 بعد سيطرة إسبانية دامت قرابة النصف قرن.